المؤرخ المغربي محمد المنوني ومنهجه في الكتابة التاريخية

بقلم
محمد بكور
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
دبلوم الدراسات العليا في التاريخ الحديث والمعاصر
طنجة – المملكة المغربية
ayazahra@yahoo.fr

نتحدث في هذا المقال عن موضوع جدير بالاهتمام، بل يفرض الاهتمام به فرضا، ذلك أن لكل أمة رجالات من نهضتها ويقظتها، تتنوع اهتماماتهم وتخصصاتهم، لكن الجامع بينهم هو التفاني في تقدير الذات والفناء في خدمتها وتحصينها.

ولعل الفقيه المرحوم المؤرخ المغربي محمد بن عبد الهادي المنوني أحد هؤلاء الرجال بل من أبرزهم ، فهو العالم المبرز والمؤرخ المقتدر ، رجل عشق الكتابة والتدوين حتى آخر يوم من حياته.

ترك الباحث حصيلة ضخمة من الأعمال خالية من الحشد والإطناب ، أعمال لا يجرؤ أي مشتغل في حقل تاريخ المغرب أن ينكر استفادته منها والاغتراف من منابعها. ولعل من أبرزها كتاب "المصادر العربية" ، تلك الببليوغرافيا الرائعة التي قربت المسافة لكل الباحثين. فلم يكن الباحث المنوني يؤرخ للحدث السياسي فقط بل كان مهموما بالتأريخ للحضارة والفكر والمجتمع بالمغرب ، فكانت كتبه عن" تاريخ الوراقة" ، و"مظاهر يقظة المغرب" ، و"قبس من عطاء المخطوط المغربي" ، و"حضارة الموحدين" ، و"ورقات عن حضارة المرينيين" ، أعمالاً فريدة في التأريخ لتطور الفكر والمعرفة والحضارة بالمغرب. ومن هنا أردنا في هذا المقال الوقوف مع هذه الشخصية الفذة تقديرا للجهود واعترافا بالجميل ، واكتشافا للمنهج التاريخي الذي اعتمده في بحثه وتنقيبه. ولا نملك إلا أن ندعو لهذه الروح الطيبة: "طبت وطاب مقامك وبوأك الله مقام الصديقين".

تعليمه وشيوخه

من حسن حظ محبي العلامة الفقيه محمد المنوني والباحثين أن الفقيد كتب سيرته الذاتية بيده وقلمه[1]. ولذلك كل الذين كتبوا عن حياة المنوني اعتمدوا على هذه النسخة التي تركها.

اسمه: محمد عبد الهادي بن محمد المنوني ، ولد بمكناس مقر عائلته مدة تزيد على ستة قرون ، وكانت ولادته فجر السبت ٢٤ شوال عام ١٣٣٣هـ/٤ شتنبر ١٩١٥م.

التحق في ٥ أكتوبر ١٩١٩ بالكتاب في مسجد حيه. وبعد أن أتم حفظ القرآن الكريم عام ١٩٢٨ على يد شيخه محمد بن الطيب القباب...أخذه والده بحفظ المتون العلمية "كالألفية" و"مختصر الخليل". ثم أخذ يحضر الدروس في أوقات الفراغ مرتين في الأسبوع ، في الفقه واللغة والتفسير والحديث والتاريخ.

في عام ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م. التحق بفاس ليتابع دراسته بجامع القرويين بالسنة الخامسة من الثانوي...حصل على "شهادة العالمية" من جامعة القرويين ٢٨ يونيو ١٩٤٣م. فعين مدرسا في القسم الابتدائي بالمعهد المكناسي في نهاية نفس السنة ، ثم مدرسا بالثانوي.

وفي عام ١٩٥٩ عين مفتشا لمادة التاريخ في ثانويات التعليم الأصيل ، قبل أن يلتحق بالعمل في الخزانة العامة ١٩٦١ ، ثم الخزانة الحسنية ١٩٦٢ ، ثم رئيسا لقسم المخطوطات بوزارة الثقافة والتعليم الأصيل سنة ١٩٧٠م. وفي عام ١٩٧٤م عاد إلى الخزانة الحسنية. بعد ذلك عين أستاذا للتعليم العالي بكلية الآداب بالرباط (٨٨-١٩٨٩).[2]

ويذكر المنوني في سيرته الذاتية التي كتبها بقلمه شيوخ العلم الذين درس عليهم في مختلف مراحل تعليمه. ويحصي منهم ٣٧ شيخا درس عليهم فنون المعرفة المختلفة من فقه وتفسير وحديث ولغة وأدب وتاريخ وجغرافيا وفلك. أولهم شيخ الجماعة العلامة المشارك محمد بن الحسين العرائشي. وآخرهم الشيخ محمد بن العربي العلوي. ومنهم عبد الهادي المنوني أب المترجم له.[3]

أما عن إجازاته فيحصي الفقيه المنوني ١٧ إجازة حصل عليها من علماء مبرزين ، من المغرب وخارجه: كالشيخ عبد الحي الكتاني- عبد الرحمن بن زيدان- الشيخ محمد المدني بن غازي ، والشيخ محمد راغب الطباخ من حلب... وغيرهم.[4]

أبحاثه ومنهجه التاريخي

نشرت لائحة إنجازات المنوني من مؤلفات وأبحاث وأعمال برسم ندوات في كتابه " قبس من عطاء المخطوط المغربي" ، وفي ملحق بالجزء الثاني من كتابه " المصادر العربية لتاريخ المغرب" ، وعنها أخذ كل من حاول تجميع ما كتبه رحمه الله ، ليتم إحصاء ١٨٤ عمل بين كتاب ومقال ومساهمة في ندوة.[5]

وقد شملت مساهمات الفقيه مجالات متعددة منها: مجال الشرع الإسلامي ، التعليم ، التاريخ ، فهرسة المخطوطات ، تاريخ الوراقة ، السيرة النبوية ، تراجم الأعلام ، اللغة والآداب ، الفنون ، العمارة ، التعريف بالوثائق ، أعمال برسم ندوات ، مقالات مختلفة في العديد من المجلات: المناهل – دعوة الحق – دار النيابة- البحث العلمي- مجلة الآداب- مجلة دار الحديث- مجلة المغرب.

أما أهم كتبه فهي: مظاهر يقظة المغرب الحديث ، قبس من عطاء المخطوط المغربي في ثلاث أجزاء ، حضارة الموحدين ، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ، ورقات عن حضارة المرينيين ، المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث في ثلاث أجزاء ، تاريخ الوراقة المغربية: صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة.

إن أعمال المنوني أكبر من أن تحصى ، فهو ينطبق عليه ما جاء في الأثر أن "خيركم من طال عمره وحسن عمله" فقد فهرس مخطوطات العديد من المكتبات: الخزانة الملكية ، الخزانة الحسنية ، الخزانة الناصرية ، الخزانة الحمزاوية. كما حقق وشارك في تحقيق العديد من المخطوطات.

- أنجز ببليوغرافيا تاريخية شاملة أملاها على طلاب الجامعة ثم طبعت. و سهر على تكوين طلاب في رحاب الجامعات بما ألقاه من عروض ومحاضرات ، وما استقبل في داره وغيرها من باحثين وطلاب ، وأشرف على توجيههم ودراساتهم ومؤلفاتهم. كما شارك في العديد من الندوات والمؤتمرات والتداريب.[٦]

أما المسار الذي اختاره لنفسه في البحث التاريخي ، فقد اتجه المنوني إلى البحث والتنقيب في التراث المغربي فاستحق أن يكون الخبير والمتخصص والمبرز في شؤون التراث. فقد قصد خزائن الكتب الخاصة والعامة يتطلع بلهف وشوق إلى ما بقي من تراث الأجداد ، وإنه لعمل مضن وشاق بذله الأستاذ في تسجيل التراث المغربي بمختلف علومه وفنونه ، وقد أثمر جهده الطيب عن طائفة قيمة من الفهارس والبيبليوغرافيا أهمها:

- فهرس المخطوطات العربية في الخزانة العامة بالرباط.
- منتخبات من نوادر المخطوطات بالخزانة الحسنية بالرباط.
- فهارس مخطوطات الخزانة الحسنية.
- دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية بتامكورت.
- المصادر العربية لتاريخ المغرب... وغيرها.[٧]

كانت خبرة المنوني كبيرة في مجال التراث والمخطوطات ، فقد برع في التوسع في الوصف الدقيق للمخطوطات من الغلاف إلى الغلاف ، فهو يصف تجليد الكتاب ، ونوع الورق ، وأنواع المداد ، ثم الخطوط المختلفة ، ويعرّف بالخطاطين ، كما يشير إلى ما نسخوه من كتب ، وفي كل صفحة يصف العناوين والزخارف والطرر والهوامش والملحقات ، زيادة على ما في المخطوطات من شماعات وقراءات وتمليكات وتحبيسات وأختام وتوقيعات...إلخ.[٨]

لقد كان المنوني حجة وعمدة للباحثين في الكتب والمكتبات والفهارس ، فهو الخبير في معرفة أماكن المخطوطات وعدد نسخها وحجمها ومكانها. ولذا فإن خبرته لن تعوض أبدا. فمن ذا يستطيع الآن أن يقوم بتقدير عمر مخطوط غفل من التاريخ ، ورده إلى عصره اعتمادا على معرفته بخطه أو ورقه أو حبره أو تجليده ؟ ؟

وما كان له أن يصل إلى هذا المستوى إلا بعدما عانى و قاسى ، فقد صاحب غبار المخطوطات وحشراتها ورطوبتها ، انتقل من الداخلة إلى العيون ووزان وتمكروت والزاوية الحمزاوية وزاوية تنغملت ، يفتش ويفهرس ويرتب. فقد اعتكف بالزاوية الحمزاوية ووصف محتوياتها بكل دقة ، وأقام شهرا في خزانة الزاوية الناصرية يحصي كتبها ويفهرسها ، ليستوعب الفهرس قرابة ٤٢٠٠ بين مخطوطة مستقلة ومؤلفات أخرى ضمن مجاميع.[٩]

وفي إطار بحثه المصدري اعتنى عناية خاصة بالوراقة ، فأخرج لعشاق المعرفة والباحثين في الحضارة كتابه الفريد "تاريخ الوراقة المغربية: صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة". ولعل البحث في هذا الحقل صعب ومعقد لندرة المعطيات وقلتها فهي لا تعدو إشارات يأتي أغلبها عرضا في المؤلفات والمخطوطات والمقيدات ، ولذلك لم يعرف لا قديما ولا حديثا تأليف أو بحث يستوعب تاريخ الوراقة المغربية ، فقد كان هدف المنوني هو إبراز فن حضاري وطني ظل مغفلا.[١٠]

ما الجديد الذي جاء به المنوني إذن من حيث البحث التاريخي ؟ من الملاحظ أن الفقيه المنوني لم يهتم بالتاريخ للفعل السياسي ، إن مشروعه يتمثل في إبراز الهوية الحضارية والثقافية المغربية وتأصيل الدولة المغربية ومؤسساتها.

لقد كان المنوني صاحب رسالة ، فقد دفعته غيرته على وطنه إلى رد كل المزاعم التي أراد المستعمر أن يرسخها في الأذهان ، ليثبت بالحجة الدامغة ، بالوثيقة ، بالبحث الرصين أن المغرب أمة وحضارة وتاريخ ودولة.[١١]

إن المنوني ينتمي لمدرسة ابن زيدان ، وإذا كان الأخير اهتم بالتاريخ للدفاع عن المخزن والدولة المغربية ، فإن رسالة المنوني كانت هي إثبات وجود الأمة المغربية بحضارتها وثقافتها ومؤسساتها. إن التاريخ عند المنوني ليس تاريخا للبطل ولا تاريخا للسلطة ، بل إنه تاريخ البنيات الثقافية والنظم والخطط الحضارية ، وتاريخ مؤسسات الدولة والمجتمع.[١٢]

ويمكن القول ؛ إن مشروع المنوني العلمي مشروعا متمحورا حول تاريخ الفكر والحضارة ، ولذا فقد اهتم بمواضيع طريفة وجديدة: كالحفلات والأعياد ، وأشكال التصوف واتجاهاته ، والعادات ، والموسيقى ، والرياضة ، وأصول الديانات ، والرايات وصناعة الأسلحة بالمغرب. وهي مواضيع تذكر بتوجه مدرسة الحوليات ، كما أن هذه المواضيع لا يرد ذكرها غالبا إلا عرضا في صيغة إشارة شاردة أو استطراد عابر فيصيرها بفضل براعته وخبرته الواسعة موضوعات متكاملة ومنسجمة في شكلها ومبناها.[١٣]

ومع كل ما أنتجه المنوني فإن ما ميزه عن كثير من المؤرخين والباحثين هو تقديم المساعدة المستمرة والاحتضان الدائم للباحثين. وهي مزية قليلا ما تجدها إلا في من تحلى بخصال الكمال والإيثار.

فلا تكاد تجد صاحب رسالة جامعية أو بحث علمي له علاقة بالتراث المغربي إلا واستفاد من الخدمات العلمية للمرحوم المنوني ، حتى قال المؤرخ المغربي عبد الله العروي أن اسم المنوني يجب أن يسجل في صدر كل مؤلف بأي لغة كان ، حول مغرب القرن ١٩م. لم يكن يأنف عن استقبال الباحثين في داره أو في أي مكان كان. ولم يكن يبخل عليهم بأي توجيه أو نصح ، بل كان يمكّن الباحثين من مخطوطات مكتبته الخاصة في كل وقت وحين.

ولعل تواضعه وتفانيه في خدمة البحث العلمي وتعاونه مع كل طالب علم هي التي منحته هذه المحبة والتقدير العظيمين في قلوب كل الباحثين المغاربة إلا من كان في قلبه مرض.

توفي المنوني ٢٨ غشت ١٩٩٩ بمكناس وبها دفن. مات المنوني. مات رجل من الصالحين كما عبر المؤرخ أحمد التوفيق. ويذكر د.التوفيق أيضا: "تذاكرنا ذات يوم حول الصالحين الذين عَرفوا ، من قبيل الكرامات وبإذن الله ، متى يوفَّى أجلهم ، فقال "أما أنا فقد رأيت رؤيا بعد وفاة الفقيه الرحالي الفاروقي أنني سأموت بعده بأربع عشرة سنة". وكان الرحالي الفاروقي توفي ١٩٨٥م ، وهكذا صدقت رؤياه ، وهذه من آيات الصالحين"[١٤].

الهوامش:

(١) توجد نسخة مرقونة عند الدكتور عمر أفا بها إضافات مفيدة اعتمدت عليها مجلة دعوة الحق لنشر ترجمة للمنوني في عددها ٣٧١ ، السنة ٤٤ ، يناير/فبراير ٢٠٠٣. ص ٢٤ . كما نشر كل من محمد آل رشيد في كتابه:" العلامة محمد بن عبد الهادي المنوني" ، منشورات دار البشائر ودار الامام مالك ، ط ١ ، ٢٠٠٥ ص ٣٣. و عبد العزيز تيلاني في كتابه: الفقيه المنوني ، شهادات وفاء ، منشورات جذور ، ط ١ ، ٢٠٠٦ ، ص ١٠ ، ترجمة للمنوني اعتمادا على النسخة التي كتبها المؤلف بيده .

(٢) المراجع المذكورة.

(٣) " "

(٤) " "

(٥) دعوة الحق ، عدد ٣٧١ ، السنة ٤٤ ، يناير فبراير ٢٠٠٣ ، ص ٤١ . عبد العزيز تيلاني ، مرجع سابق ، ص ٥٣ . محمد آل رشيد ، مرجع سابق ، ص ١٩٧.

(٦) محمد المغراوي ، العلامة محمد المنوني والمخطوط المغربي: رحلة خبرة وعطاء ، مجلة دعوة الحق ،عدد ٣١٧ ، ص.١٤٣

(٧) نفسه ، ص ١٤٤ .

(٨) إسماعيل الخطيب ،محمد المنوني: الفقيه- المؤرخ- التراثي ،دعوة الحق ،عدد ٣٧٠ ، اكتوبر/ نوفمبر/ دجنبر ٢٠٠٢ ، ص ٦٠.

(٩) نفسه ، ص ٦١.

(١٠) محمد الطوكي ، الخلفية النظرية للعمل البيبليوغرافي للفقيه محمد المنوني ،دعوة الحق ، عدد ٣٧١ ، صً ١٠٤ .

(١١)إسماعيل الخطيب ،دعوة الحق ، عدد ٣٧١ ، ص ٦١ .

(١٢) الفقيه الادريسي ، منهج الكتابة التاريخية عند العلامة محمد المنوني ، دعوة الحق ،عدد ٣٧١ ، ص ١٤٧.

(١٣) إسماعيل الخطيب ، م. س. ص ٦٢ .

(١٤) أحمد التوفيق ،مات رجل من الصالحين... مقال ضمن كتاب " الفقيه المنوني شهادات وفاء ، لعبد العزيز تيلاني ، ص ١٢٤.

الأستاذ محمد بكور في سطور:

- كاتب وباحث مغربي وأستاذ التعليم الثانوي التأهيلي لمادة التاريخ والجغرافيا.
- حاصل على دبلوم الدراسات العليا المعمقة في التاريخ الحديث والمعاصر.
- يحضر أطروحة الدكتوراه تحت عنوان:" الكتابة التاريخية بالمغرب في عهد الحماية".